القومية السودانية..... ومأزق الهوية

خلصنا فيما قدمنا به في عدد سابق من "مفاهيم" إلى أن القومية هي انتماء وولاء لمجموعة من البشر تقطن رقعة جغرافية محددة ، وأنها إنتماء ثقافي ، مع إيضاحنا لوجه الإختلاف بينها وبين مفهوم الوطنية.

كما ألمحنا إلى أن حل المشكل السوداني لا يتأتى إلا بتبني الدعوة إلى مفهوم القومية السودانية في إطار ما حاولنا تعريفة هناك .. وبذا يمكن تجاوز ما برز مؤخرا من مشكلات ونزاعات جهوية في السودان.

ولمعالجة أمر القومية السودانية على نحو سليم ، لزم علينا معالجة ما يقع في نقاط التماس فيما بينها وبين المفهوميات الأخرى ذات الصلة بالمفهوم.

لذا نفرد هذه المقاربة لمسألة الهوية ، التي يظن بعض الباحثين والدارسين في هذا المجال ، أنها شرط صحة لنمو شعور قومي ، بمعنى أن الإنتماء لمجموعة ما يشترط إلتقاءها في الهوية.

ومفهوم مثل الذي أشرنا إليه رغم ما فيه من صحة ، يبدو متعارضاً متشاكساً مع واقعنا المتعدد والمتلون من ناحية العرق ، الثقافة والدين.

فلو أخذنا بهكذا رأي ، لسلمنا باستحالة نشوء قومية سودانية، إذ لا هوية جامعة في السودان ، ونحن لا نجزم بخطل هذا الإدعاء لقدر الصحة الموجود فيه ، إذ أن الهوية تشكل أرضية داعمة لتأسيس الإنتماء القومي.

وحتى نتمكن من مقاربة الموضوع بصورة متدرجة ، نبدأ من أصغر وحدة تنظيم إجتماعي يقوم الإنتماء فيه إلى أصل واحد ،وهو القبيلة والتي كان أساسها الأسرة،ومن ثم كان تطورها واتساعها ، لإنضواء أفراد ليسوا منها بسبب الهجرة أو المصاهرة أو الأسر في حالات الحروب.

ولربما تطورت القبيلة بمصاهراتها وبمداخلاتها المحدودة مع غيرها لتكوين مجموعة عرقية ، وكما هو معلوم أن المجموعة العرقية هي مجموعة من الأفراد لهم سمات وتقاطيع بيولوجية تدل على عضوية الفرد للمجموعة وتدل على المعنى الإجتماعي لهذه العضوية في المجتمع عامة.

وبذا كما كانت الأسرة نواة للقبيلة التي تطورت إلى مجموعة عرقية ،يمكن القول أن المجموعة العرقية هي الأساس للمجموعة الأثنية.

وهي أي المجموعة العرقية تشكل بوصلة الأدوار الإجتماعية والقيم والمعايير الخاصة بالمجموعة الأثنية.

والأثنية مفهوم أنثروبولوجي تلقفته العلوم الإجتماعية واستوعبته ، وهو يعني مجموعة من الأفراد ينحدرون من أصل واحد ، ولهم تاريخ مشترك من القيم والرموز ، وأحياناً الدين واللغة ، ويكون الإنتماء لأثنية ما، عبر أجيال. بسبب دخول عناصر جديدة وبسبب تطور المصالح المتطابقة مع ثقافة المجموعة التي يحافظون ويدافعون عنها.

وثقافة المجموعة الأثنية ليست بالضرورة وراثية ولكنها تمثل إنعكاس المعاني والمفاهيم الإجتماعية التي تكتسبها هذه المجموعة وتلحقها بهذه الخصائص المتوارثة ، والأهم هي المعاني التي تعطيها المجموعة لهذه الخصائص في سياق المجتمع.

إذاً ، فأنماط السلوك التي يطورها الفرد نتيجة لهذه المعاني الإجتماعية، يرمز لها بثقافات المجموعات الأثنية والعرقية .

ما يعيب التجربة السودانية أنها تغافلت دراسة الأمر من جذوره ، ولم تنظر للتنوع الذي يذخر به السودان، واكتفت بأن استشرفت بناء قومية سودانية مبنية بوعي أو بغيره ،على مفهوم المصهر. فبما أن الثقافة العربية الإسلامية كانت تسيطر على مقاليد السلطة والثروة ، تصور حاملو هذه الثقافة أنها المعيار الذي يجب أن تبنى عليه تلك الثقافات الأخرى ، ففرضوا عليها الإنصياع إلى ثقافتهم. ولعل كل أطراف البنية السياسية السودانية القديمة قد تناولت مفهوم الهوية والقومية من منطلقات سياسية وأيديولوجية ذهبت بها بعيداً عما هو صائب ، ونحن بدورنا إذ نقارب هذه المفهوميات نحاول جاهدين أن نجانف تأثير الأيديولوجية والسياسة على ما نجترح ، وذلك بأنتهاج منهج أكاديمي بحثي.

ولعلنا نثبت بذلك ما ذهبنا إليه ،مما يبدو إتهاماً لغيرنا، إذا ما ناقشنا الأطروحات التي بذلت في هذا المجال علي نار هادئة.

ولنتناول الدعوى التي تقول أن الهوية السودانية هوية عربية إسلامية أو لنقل دعوى التيار العروبي.. والذي جاء إدعاؤه كخطاب مسطح لتوصيف علاقة الجانب الثقافي

بالجانب الإجتماعي في المجتمع ، بظنة أن الإدعاء العروبي يعطي أفضلية إجتماعية وثقافية متوهمة على بقية الثقافات الأخرى ، ويقود الوهم أدعياء هذه الهوية إلى إنكارهم التام لأن يكون للثقافة والعرق الإفريقي أي دور في تشكيل هويتهم وشخصيتهم ، رغم أن ألوانهم وشعورهم المجعدة وأنوفهم الفطساء وشفاههم الغليظة تغالط هذا الإدعاء،فضلاً عن مغالطة الفنون والعادات والتقاليد.

أما الإدعاء بأن هوية السودان هي هوية أفروعربية أيضاً لم تؤسس على أساس فكري متين ، وإنما أتخذت طابع الصرعة الثقافية وردة الفعل النفسية التي جاءت مقابلة للإستقطاب العربي من جهة والأفريقي من جهة أخرى ، وهي بالضرورة قد عجزت عن أن تتبلور في مفهوم معرفي ،إذ لم ينظر إليها مجترحوها كناتج حوار طويل بين الثقافتين العربية والإفريقية. وأخطر ما يؤخذ علي هذه الدعوى،إنها قد جاءت عبر خطاب فطير ومنحاز للعروبية تفادياً لأية مواجهة محتملة مع أدعيائها هذا من جهة ، ومن جهة أخرى محاولة لأستيعاب النزوع الأفريقاني ، وهي في البدء والمنتهي محاولة توفيقية للخروج من محك قد يتولد عن التأسيس المعرفي والمواجهة الفكرية.

من جانب آخر نجد أدعياء الأفريقانية الذين يتجاهلون ما هو كائن من ثقافة عربية ،وهي تنطلق من جهل بحقيقة أن أفريقيا هي بوتقة لثقافات عديدة ، وليست ثقافة واحدة يمكن الأنتساب إليها وتأسيس نظرية معرفية لهوية تنتمي إليها.

ومؤخراً ظهرت محاولات لاختزال الهوية السودانية في مصطلح المركز والهامش ورغم أن هذا المصطلح أصبح سائداً اليوم في الأدبيات السياسية ورغم أننا ممن تداولوه ، إلا أنه يظل كواحد من المحاولات التي وسمتها السياسة والأيديولوجيا بميسم العمومية وعدم الدقة.

ولعله من نافلة القول أن مفهوم المركز والهامش ،هو مفهوم إقتصادي إبتدعه الماركسيون الجدد ، فوجد طريقه إلى أدبياتنا السياسية فأسقطناه بمحاولة عجلى ومتلهفة لمعالجة أشكال الهوية.

إدعاء أن هوية السودان تنقسم إلى مركز وهامش إسقاط لما هو سياسي أيديولوجي إقتصادي على تحليل ثقافي أدى في النهاية إلى إخلال بهذه المفاهيم الثقافية وتطبيقاتها المنهجية.

فتقسيم هوية السودان إلى مركز (ثقافة عربية إسلامية) وهامش (ثقافة إفريقية) أو في سياق آخر المركز (الشمال والوسط النيلي) مقابل الأطراف ..

قد يصح هذا الإدعاء بميزان التنمية والإقتصاد ولكنه يتعرض لإمتحان رهيب في ميزان الثقافة والهوية ، فحين نقول المركز (العربي إسلامي) أو (الشمال والوسط النيلي) مقابل الأطراف أو(الهامش) أو (الثقافات الأفريقية) يكون الأمر مختلاً حين نسأل هل نوبة الشمال مركز أم هامش ؟ فهي مركز بحكم وضعها الجغرافي (الشمال والوسط النيلي) وهي هامش إقتصادياً ، ولكنهم ثقافياً متأثرون بالعروبة ويدينون بالإسلام.

إذا، القول بمركزية الثقافة العربية والإسلامية مقابل هامشية الثقافات الأخرى ، تنقصه الدقة، ويبين الأمر أكثر ما يبين حين نناقش قضية الجنوب ، فالجنوب هامش جغرافياً ، إقتصادياً وثقافياً. ولكن المركز وفقا لمفهوم المركز والهامش يكون متسعاً بالنسبة له ، فهو أسوأ حالاً من ناحية إقتصادية من الشمال مجملاً .. وأن كان من ناحية ثقافية فالمركز أكثر إتساعاً فهو مختلف ثقافياً مع كل الشمال بما فيه أجزاء من الهامش كدار فور والنوبة الشمالية والشرق.أي أن مركز الجنوب كهامش هو كل الشمال بما يشمل،ممن صنفهم هذا الادعاء هامشا.

وكذا الحال في الهامش الغربي بإعتبار أن غرب النيل هامش والذي يشمل كردفان ودارفور يصح إقتصادياً ولا يصح ذلك ثقافياً ، فشمال كردفان عربية إسلامية فهي إذا، مركز وليست هامش. وفي إطار كردفان الكبرى يكون شمال كردفان مركزاً مقابل جنوبها الذي يظل هامشا اقتصاديا والي حد ما،ثقافيا. وينسحب ذات السؤال إلى دار فور التي تتشكل من حوالي أربعة وعشرون قبيلة منها (14) قبيلة أفريقية منها اثنان مستعربتان (البرتي والتنجر) وحوالي (10) قبائل عربية ، فهل تمثل المجموعات العربية مركزاً بينما تمثل المجموعات الإفريقية هامشاً ؟؟ مع العلم بأن كل هذه القبائل تدين بالإسلام وهو ضمن منظومة الثقافة العربية.

ولا يشذ الشرق عن بقية أجزاء القطر فالإسلام سائد فيه والعروبة لها ثقل كبير تمثله (7) قبائل عربية كبيرة.بطرح هذه الأسئلة تتخلخل أرضية هذا الادعاء فضلا عما يستطبنه من إيماءات قد توسمه بميسم العنصرية.

من الواضح أن كل المقاربات التي حاولت معالجة إشكالية الهوية في السودان لم تكن دقيقة لتأثرها بما هو أيديولوجي وما هو سياسي. فواقع الحال يقول أن السودان به هويات عدة نحاول إجمالها في الهوية العربية الإسلامية (وهذه تسمية مجازية) الهوية الأفريقية الإسلامية والهوية الإفريقية الوثنية، مع وضع الإعتبار لحقيقة أن الهويات الأفريقية سواء أكانت إسلامية أو غير إسلامية هي هويات مختلفة عن بعضها البعض.

إذاً ماذا نزعم لمعالجة أمر الهوية في السودان ؟ نزعم أن أمر الهوية في السودانٍ أمر معقد وشائك فعلى نحو ما أبنا سالفاً أن السودان تتعدد فيه الهويات ، ولا نجزم بأن هنالك هوية غالبة لهذه الرقعة الجغرافية المسماة بالسودان.

لذا فإن أي مقاربة لموضوع الهوية لابد أن تنطلق من حقيقة أن السودان بلد متعدد الثقافات وبالتالي الهويات ، وحقيقة أن السودان ناتج تلاقح ثقافي نهدت فيه العروبة برفدها ووسمته أفريقيا بميسمها ، ومن ثم فنحن ندعو إلى هوية مستقبلية ، لا نتبنى فيها نظرية المصهر التي كانت سائدة والتي(ربما لم تكتمل دورتها لعوامل جغرافية تمثلت في بعد الأطراف ولقانون المناطق المقفولة ولضعف البنية التحتية التي لم تؤسس بطرق مواصلات رابطة لإنحاء السودان المختلفة).

فنحن على قناعة بأن الهوية هي نتاج تحليل العلاقة بين الفرد والمجتمع وهي بمعنى أشمل شبكة من العلاقات الإجتماعية المتفق عليها من جميع الأطراف ، وهي تتشكل خلال العمليات الإجتماعية (التاريخ)غير الساكنة وغير الجامدة.

وفي هذا السياق نستشهد بايزايا برلين حين يقول:(أن الوشائج التي تنمو بين أفراد أي مجموعة من البشر عبر روابط متينة ، ظاهرة أو خفية ، مثل اللغة المشتركة والذاكرة التاريخية ، والعادات والتقاليد والأحاسيس لابد من أن تخلق إلفة ومودة ببين أولئك الأفراد).فهذا ما نسعى إليه وما ندعو له.

وبما أننا نفهم الهوية في إطار ما أسلفنا من مفاهيم ، لا سبيل لنا إلا بتبني نظرية الحوار الثقافي لتحقيق هوية سودانية غالبة ،والحوار الثقافي يعني فيما يعني الصراع الجدلي الذي يرفد الثقافات المتحاورة من بعضها ويولد قواسم ثقافية مشتركة ومن ثم يخرج الناس من إطار القبيلة العرقية ، والأثنية إلى رحاب يتسع ويتسع وصولاً إلى هوية كبرى ، يكون فيها الإنتماء مركباً ينتمي فيه الفرد إلى المجموعة التي تقطن المنطقة الجغرافية المسماة السودان ، بكل تعدد وتلون هذه المجموعة.

وهذا يأتي بفعل القواسم الثقافية المشتركة التي كونتها التداخلات الإجتماعية ، الثقافية ، الإقتصادية التي تخلق المصالح المشتركة والمصير المشترك.

ولا يتم هذا الحوار الثقافي إلا إذا نبذنا الإنحياز والتعصب لثقافة بعينها أو إفتراض أن ثقافة ما أفضل من الثقافات الأخرى أو ضرورة سيادة ثقافة على ما عداها من ثقافات ولتحقيق الحوار الثقافي لابد من ربط البلاد بشبكات طرق برية ، بحرية ، جوية ، وخلق مشروعات إقتصادية مشتركة وإقامة المناشط المشتركة لإتاحة الفرصة لهذه الثقافات وحامليها للتداخل والحوار.

وشرط الصحة في نجاح هذه النظرية يكمن في الإعتراف الصريح بالتباين الثقافي وإبراز كينونة هذه الثقافات إعلاميا وإدراجها في البرنامج التعليمي (اللغات ، والأديان)، ويجب ألا يكون التعامل مع البرنامج التعليمي كحامل للثقافات كحديث سياسي تكتيكي فقط ، ويجب ألا نظن أن إدراج هذه الثقافات ،لغاتها معتقداتها في البرنامج التعليمي كافيا لإنجاز ما نريد إنجازه في شأن الهوية، فالثقافة كائن حي يجب أن يكون في سياق متحرك في جملة أشكال ديناميكية ، كالإعلام والأجهزة السياسية والاقتصادية.

بهذا نضمن أن ناتج الحوار هو الثقافة(الهوية) السودانية بمكوناتها اللغوية ، المصلحية ، التاريخية . وهو الهوية المستقبلية التي ننشدها وهو القومية السودانية التي ننادي بها.